

دروس يابانية: كيف تكون من بلد ناصر وتاكل أرزاً أمريكياً؟!

د. رءوف عباس

20 سبتمبر 1995

لقد أثبتت التجربة عجزنا عن المواجهة العسكرية لأسباب عديدة ولكن أماماً مجالاً أرحب للمواجهة الاقتصادية لقد بنينا إقتصادنا الوطني من بين حطام الحرب وأصبحنا الآن قادرين على فرض وجودنا على الساحة الإقتصادية الدولية، وغداً سوف نوجه ضربات مؤثرة للإقتصاد الأمريكي يحس بها كل بيت في أمريكا إنها الطريقة اليابانية لمسح عار الهزيمة.

دعيت كزميل زائر بمعهد اقتصاديات الدول النامية بطوكيو وهو مؤسسة بحثية مستقلة به قسم خاص بالشرق الأوسط، ورتب لي المعهد إقامة مع أسرة يابانية لمدة عام كامل أتيج لي خلاله التعرف عن قرب على هموم المواطن الياباني وآماله وأعقب تلك الزيارة الطويلة زيارات قصيرة تراوحت بين الشهر والشهرين أعوام 1977 و 1979 و 1987 ثم زيارة طويلة لمدة عام (1989 – 1990) عملت خلالها أستاذاً زائراً بجامعة طوكيو فأتحيت لي بذلك فرصة المتابعة لما حدث من تطورات سريعة الإيقاع في شتى المجالات، كما أتاحت لي أسفاري الأخرى في مختلف بلاد أوربا وأمريكا فرصة المقارنة والتأمل، وتبقى الدروس التي تعلمتها من اليابان في طليعة الخبرات التي اكتسبتها في رحلة العمر.

الزمان : يناير 1973 والمكان : بيت صديق ياباني بطوكيو كان الرجل ضابطاً مهندساً بالجيش الياباني أيام الحرب استطاع بعد سنين طويلة من المعاناة أن يؤسس شركة صغيرة لإنتاج بعض القطع اللازمة لصناعة الالكترونيات، ودار الحديث حول المدفأة ذات مساء حول الصراع العربي - الإسرائيلي، أجبت مضيقاً على أسئلته حول جذور هذا الصراع وأسباب هزيمة 1967 مستفيضاً في الشرح، والرجل يستمع إلى باهتمام شديد ثم قام فجأة وأحضر أطلس الخرائط، وطلب مني أن أحدد البلاد العربية على خريطة العالم، وعندما فعلت، ونظر إلى نظرة ذات مغزى قائلاً : إنكم يا صديقي ترحمون خريطة الدنيا دون داع ! نقول : إنكم مائة مليون عربي، وأعلم أن لديكم الكثير من الموارد الطبيعية والبشرية وتتركون مليوناً وبعض الملايين من الغرباء يحتلون أرضكم ويهينون كرامتكم ثم تعلقون قصوركم في حق وطنكم على شناعة الإمبريالية ! لو كان أمر تحرير التراب الوطني يعينكم حقاً لسحقتم إسرائيل تحت أقدام ملايينكم حتى ولو لم تبق من تلك الملايين المائة سوى عشرة ملايين.

قلت وقد غص حلقى : ولماذا تطالبنا أيها الصديق بما تعجزون عنه أنتم، لقد استخدم الأمريكان بلادكم حقلاً لتجارب السلاح النووي، وقوضوا نظامكم السياسي، وسرحوك من الخدمة وغيرك من رجال الجيش، وفرضوا وجودهم العسكري من خلال معاهدة تحالف لا تستطيعون منها فكاً، فكيف تيرر هذا التخائل الياباني سوى أنكم غلبتم على أمركم كما غلبنا نحن ؟ على الأقل نحن لازلنا نسعى لتحرير ترابنا الوطني، بينما أنتم تعايشتم الهزيمة.

فأجاب الرجل : من أين أتيت بفكرة التعايش مع الهزيمة تلك ؟ ! إن اليابان لن تنسى مرارة الهزيمة ولكن لنا أسلوبنا في مواجهة الخصم فإذا كنا قد هزمنا فنحن سعيينا منذ اليوم الأول للتعرف على أسباب قصورنا وعلى مزايا الخصم، حتى نتزود بأسباب القوة التي تجعلنا قادرين على المواجهة، ثم هناك اختيار ميدان المواجهة، لقد أثبتت التجربة عجزنا عن المواجهة العسكرية لأسباب عديدة ولكن أماماً مجالاً أرحب للمواجهة الاقتصادية، لقد بنينا إقتصادنا الوطني من بين حطام الحرب وأصبحنا الآن قادرين على فرض وجودنا على الساحة الاقتصادية الدولية، وغداً سوف نوجه ضربات مؤثرة للإقتصاد الأمريكي يحس بها كل بيت في أمريكا. إنها الطريقة اليابانية لمسح عار الهزيمة.

اعتبرت الحديث مجرد أضغاث أحلام نمر ياباني جريح وعجوز يحاول أن يعلق جراح الكرامة الوطنية متعللاً بالألماني ولكن مسار العلاقات الاقتصادية مع أمريكا حقق لأول مرة عجزاً كبيراً لصالح اليابان قبل نهاية السبعينيات، وتحولت اليابان إلى دائن كبير، وأصبح باستطاعتها أن تحدث هزة في الإقتصاد الأمريكي، وبدأت المواجهة الهادئة بين الدولتين فطالبت أمريكا اليابان باستيراد سلع أمريكية وفتح الأسواق اليابانية أمام السلع الغذائية، وكان الموقف الثابت للحكومة اليابانية هو أن الحكومة لاتمانع في استيراد السلع الأمريكية، المهم هو اقتناع المستوردين اليابانيين بحاجة السوق الياباني إلى تلك السلع، و فوق ذلك كله اقتناع المستهلك الياباني بها، ومع تزايد الضغوط استوردت اليابان بعض السلع الاستهلاكية، فماذا كان موقف المواطن الياباني ؟

الزمان خريف 1979، والمكان شارع جينزا بطوكيو، ورفيق الطريق أستاذ يابانى متخصص فى الأدب العربى ترجم اعمالاً ليويسف إدريس وصنع الله إبراهيم وغسان كنفانى وعبد الرحمن الشرقاوى وبينما كنا نتبادل أطراف الحديث لمحت ثلاجة أتوماتيكية لبيع العصير باستخدام العملات المعدنية تضع فيها الثمن ثم تضغط زرّاً يحمل اسم العصير فتخرج لك علبة العصير المثلج، وكان من بين محتويات الثلاجة عصير الجوافة فقلت لصديقى : عجباً أصبح عصير الجوافة متوفراً باليابان ما رأيك فى تناول هذا العصير ؟

واتجهت نحو الثلاجة فإذا بصديقى يعترض طريقى قائلاً ألسنت صديقاً لليابانيين ؟ قلت بلى قال : أصدقائنا لا يشربون عصير الجوافة لأننا لانشره وعندما سألته عن السبب قال : إنه بضاعة أمريكية فرضت علينا ونحن نريدهم أن يعلموا أننا لا نحب إلا ما تصنعه بلادنا.

قلت : ما ذنب الشركة المستوردة ؟ قال : إن الشركة تعلم ذلك جيداً وتريد أن تثبت للأمريكان أن المستهلك اليابانى لا يقبل على تلك السلع.

مرة أخرى الزمان 1990 والمكان سوپر ماركت بأحد أحياء طوكيو حيث كنت أقيم، كنت وزوجتى نشترى حاجتنا من السلع الغذائية وشاهدت زوجتى ألداساً من أكياس ماركة معينة من الأرز الأمريكى نعرفه جيداً تحمل بطاقة سعر تشير إلى أن قيمة الكيس تعادل نصف قيمة نظيره اليابانى، فكان طبيعياً أن نتجه صوب الكومة ونلتقط كيساً منها نضعه بين ما نحمل من سلع فإذا بسيدة يابانية فى منتصف العمر تقترب منا وتسألنى : سيدى.. من أى البلاد جئت ؟

قلت : من مصر. قالت : إذن أنت من بلد ناصر.. وتحدثت اليابانية لأبد أنك صديق لليابان قلت نعم : إننى أستاذ زائر بجامعة طوكيو، أجابت : كيف تكون من بلد ناصر وتأكل أرزاً أمريكياً لا يأكله أصدقاؤك اليابانيون؟!

أسرعت بالتقاط كيس الأرز اللعين وأعدته إلى موضعه فى الكومة الكبيرة، والتقطت كيساً بديلاً من الأرز اليابانى فإذا بالمشترين الموجودين بالسوبر ماركت يصفقون وينحنون تحية.

كانت يومئذ معركة الأرز محتدمة بين اليابان وأمريكا ولأن اليابان تدعم إنتاج الأرز بمبالغ كبيرة كانت أمريكا (ولازالت) تسعى لإلغاء إنتاج الأرز اليابانى وفتح السوق اليابانى للأرز الأمريكى وكانت اتحادات الفلاحين تنظم مظاهرات فى مختلف أنحاء اليابان تطالب باستمرار دعم الأرز وإغلاق السوق اليابانية أمام الأرز الأمريكى ليس لأسباب اقتصادية محضة، ولكن لأن إنتاج الأرز من صميم الثقافة الوطنية اليابانية لاتصاله بالكثير من العادات والتقاليد.

قاوم اليابانيون الضغوط الأمريكية بالامتناع التلقائى عن شراء السلع الأمريكية التى يفرض عليهم استيرادها، لم تطلب منهم وسائل الإعلام ذلك لم يوجههم حزب سياسى أو أى تنظيم جماهيرى، ولكن المواطن اليابانى يربطه شعور تلقائى جمعى وثيق الصلة بذكريات الهزيمة، والحرص على مسح عارها على الطريقة اليابانية على نحو ما ذكر صديقى الضابط المهندس المتقاعد فى حديث شتاء 1973، الذى اعتقدت أنه مجرد "فك مجالس" فإذا به قرار شعب عقد العزم على حماية مصالح الوطنية وتنمية اقتصاده الوطنى.

دورس من اليابان أهدبها لمن يقيمون المزايدات لبيع مؤسساتنا الاقتصادية، وللمصريين الذين يعشقون المستورد وينبذون الإنتاج الوطنى، ويتجاهلون حقيقة أن بناء الاقتصاد الوطنى المستقل كان هدف الحركة الوطنية المصرية منذ طلعت حرب حتى جمال عبد الناصر، ولمن يعنيه أمر الدفاع عن المصالح الوطنية لعل.. وعسى.